الأستاذة: د. أمينة أونيس
كلية الآداب واللّغات
قسم اللّغة والأدب العربي
السنة الدراسية: 2023/2022.
السداسي الأوّل

المادة: التجريب في الأدب الجزائري المعاصر
(محاضرة)
الاختصاص: الأدب العربي الحديث والمعاصر.
السنة: الثانية ماستر.
الأفواج: 01 + 02 + 03 + 04.

محاضرة رقم: 02

الأدب الجزائري و الثورة

كان لابد أن تنعكس الأوضاع المزرية لدى طبقة الشعب الجزائري نقمة على المحتل، وتعبر عن مواقف الرفض، فقد أدى تفاقم الوضع إلى تشكل الوعي الوطني لدى أبناء هذا الشعب؛ إذ في أحضان هذه الظروف المأساوية تربى وترعرع جيل كامل من المناضلين الطلائعيين متشبعا بالأفكار الثورية، ومؤمن بـ "الأديولوجيا" الوطنية فقد منحته المآسي، والمحن صلابة، وصمودا[1].

أتاحت الأحداث التي عاشتها الجزائر الفرصة لاكتساح البعد الأيديولوجي في الساحة الفنية ، إذ استعرض الأدباء أفكارهم الأيديولوجية من خلال الرواية بصفة خاصة لترجمة ملامح الثورة الجزائرية وما تحتويه من فضاءات جمالية في كل مشهد من مشاهد سردها وشخصياتها.

رسم الكاتب الجزائري صورة البطل الشاب وصورة البطل الطفل وصورة البطلة المرأة ، فيتعلق المر بالشخصيات الفذة التي يحركها الكاتب حسب رؤاه وحسب ما عاشه من أحداث ثورية قاسية يبلورها السرد من ناحية والتناسق من ناحية أخرى "لا يخفى على قارئ يطالع الأدب الجزائري أن يلحظ فيه خاصية الثورة بوصفها هاجسا أساسيا يحرك عملية الكتابة أو هي تتحرّك فيه"[2].

بالنظر إلى بعض النماذج الأدبية كالمؤامرة لمحمد مصايف، والبزاة لمرزاق بقطاش، وهموم الزمن الفلاقي لمحمد مفلاح، قد حققت سمت مشتركة تحرّك البطل عبر احداثها وتنقل صورة متكرّرة نوعا ما عن الثورة التحريرية الكبرى يبدو فيها السارد وهو يسيّر الشخصيات ويصنع الأحداث من الخارج.

فالكاتب يلتزم في نصّه بوصف المأساة التي تلحق بالبطل أو المواطن الجزائري بشكل عام ممثلة في: الظلم، الاستبداد، الوعود الكاذبة.. فهو يعمد في نصّه الأدبي إلى أن يرسم لوحة فنية عن الثورة الجزائرية بقيمتها الانسانية، وفيها ينشغل البطل انشغالا شديدا بهموم الوطن والمواطن.

الهدف من هذا الوصف هو إيجاد المبررات الكافية لتقبل القرار، وما قراره - البطل - إلاّ عزمه على اللّحاق بإخوانه المجاهدين إلى الجبل وهو المنفذ الوحيد الذي ينتظر كل مواطن في وطنه، فهو يحدث انفصالا بين حياته الأولى وبين حياته

1- سليم بتقة، أوراق بحثية في النقد والأدب، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2014، ص:198.
2- مخلوف عامر، الرواية والتحولات في الجزائر، ص:17.

الثانية في ظل النضال الذّي يضمن له البطولة والوفاء لإخوانه الثوار، فيختار طريقا حافلا بصور المجازفة حتى يصل إلى الاستشهاد في سبيل الوطن.

أما الجبل فيمثّل داخل فضاء العمل رمزا أثريا يحمي ثورته، ويناضل مع الانسان الجزائري، ويتعرض معه للدمار والقصف.

فالبطل المجاهد تقترن به صفات مثالية: الشرف، النبل، الشجاعة، الروح الوطنية، الوفاء، الصدق الانتصار، أما الخائن فإما أنه خائف على حياته أو أغوته المطامع فصار عميلا للعدو وانتهى نهاية مخزية.

إنّ تكرار صورة الثورة لهو دليل على ولاء الكُتاب للخطاب السياسي الرسمي، فالكاتب لم يتعمق في قضية التناقض القائم خلال الكفاح لمسلح، فحقيقة الصراع لا تتجسد في المفهوم البسيط بين الأنا العاقل والهُو الظالم، بل إنّ حقيقة الصراع تتجسّد في تلك القوى الانتصارية التي ولدتها باعتبارها تبذل كل ما في وسعها لطرد المستعمر الطاغي.

معظم الكتابات الروائية لازمتها تلك الرؤية البسيطة للصراع خلال حرب التحرير وهذا يعود إلى جملة من الأسباب:

1- استند الخطاب السياسي منذ الاستقلال على ما يسمّى الشرعية التاريخية، فقد تولى قدماء المجاهدين السلطة تحت مظلة هذا الخطاب وسعوا إلى تغطية الخلافات التي نشبت مع الثورة منذ قيامها.

2- واقع أدباء الستينات و السبعينيات اتسم بفكر محدود ووعي بسيط لا يبعد في فهمه عن طبيعة الصراع كما يفهمه المواطن البسيط والذي ليس في نهاية الأمر سوى صدى للخطاب الرسمي. باستثناء كتاب قلائل تميزوا برصيد فكري وسياسي جعلهم يراجعون المسلمات التاريخية و يصقلون أدواتهم الأدبية.

3- إنّ مساعي الكتاب تميل إلى تمجيد لماضي بتعداد ذكريات الحرب والإشادة بالمبادئ النبيلة التي ضحى من أجلها الشهداء بالنفس والنفيس، وأنّ هذا التمجيد يتّكئ عليه الأديب أحيانا ليعبر من خلاله عن نقده الواقع المتردي ونبذ الفئة التي تكرس خطاب الشرعية التاريخية.

4- قد يكون سبب توظيف الحرب/ الثورة ناجما عن أحكام تقضي بضرورة الصلة بين الأدب والواقع الاجتماعي (الواقع الثوري)، والاقرار بمهمة الأدب والفن تجاه المجتمع وتجاه الفئات المعوزة بخاصة، فتلغي بذلك فكرة الفن للفن، لترسّخ قناعة بأن الفن للفن جميل ولكن الفن للتقدم أجمل على حد تعبير "فيكتور هيجو".

5- عندما استحضر بعض الكُتاب موضوع الثورة ضمن أعمالهم الروائية استحضروه بغية الاستجابة للخطاب الرسمي أو حبا في الوطن بطريقة ساذجة أو للنقد والتعبير عن اليأس، وقد ينوي الكاتب أن يجعل من اختباره ذاك جسرا للعبور إلى الشهرة الأدبية.

6- إنّ الفكر والوعي البسيطين اللذين خلفتهما الكتابة أو الأعمال الروائية ناجمان في الأصل عن الوضع الثقافي الذي كانت تعيشه الجزائر آنذاك، ومنه ضعف الحركة الأدبية والنقدية ومن نقص في التسيير الإداري والتربوي وفقر المكتبات كمّاً وكيفاً، بالإضافة إلى قلّة التواصل مع الانتاج العربي والعالمي.

7- عكست جل هذه الكتابات الاتجاه التقليدي الكلاسيكي، الذي نادت به جمعية العلماء المسلمين واتخذت من اللّغة العربية أداة للكتابة وتحتضن الرواية كجنس حقق شعبية بين سائر الفنون، لا لأنّها تتسع لاستيعاب القضايا والمسائل المستعصية التي يفرزها الواقع وحسب بل لأنها عند مجموعة منهم صارت اللون الأدبي الأكثر طلبا فمن شأنها أن ترقى بالكاتب إلى ميدان الشهرة.

8- ما يميّز هذه الكتابات هو بساطة الفكرة وتبدو فيها الجوانب الفنية باهتة فتأتي أقرب إلى تسجيل تاريخي أو تقرير سياسي منها إلى ما تقتضيه أدبية الأدب، ففكرتها تكاد تكون متكررة على مستوى الأعمال الأدبية، والقارئ لا يجد عناء في توقع النهايات أو في سيرورة الأحداث لتشابهها.

9- التشابه ذلك تمليه شخصية البطل الخارق أو المثالي لما يتصف به خصل محمودة ويقابله الخائن ومايميزه من صفات مذمومة.

10- إنّ ولاء الأعمال الأدبية للخطاب الرسمي ساعد على سرعة طبعها ونشرها دون الوقوف عند قدرة الكاتب على امتلاك الأدوات الفنية الضرورية لكل عمل أدبي.

لقد تقاربت معظم الكتابات في طريقة توظيف الحرب أو الثورة وطريقة سردها لحكاية بطل أو أبطال معنيين وكيف أنّ السبيل إلى تحقيق المبتغى تعترضه العديد من الأخطار، إلاّ أنّ النهاية تأتي سعيدة في أغلب الأحوال، ومنها الانضمام إلى صفوف المجاهدين ومشاركتهم في الدفاع عن الوطن حيث يُسعد البطل بما أدّاه وبرغبته في الاستشهاد في سبيل الله والوطن، بينما الخائن مصيره الفشل لأنّ سقوط الخائن يعني سقوط النظام المستبد.

وبالنظر إلى القراءات النقدية التي درسها أدباء ونقاد عرب قبل الجزائريين لم تكن قراءتهم سوى انطباعات خاطبت الشعب الجزائري ومجّدت ثورته العظيمة أكثر مما اهتمت بالنص الأدبي ومدى قربه أو بعده من المقاييس الفنية، فقد تمحورت آراؤهم النقدية حول الأبعاد الفكرية التي تحملها الثورة كأن يجعل الناقد النضال الجزائري نموذجا عربيا وإفريقيا إن لم نقل نموذجا لكل المستضعفين والمستعمرين في الأرض[1].

لقد كانت الثورة التحريرية وما تزال المعين الذي يغترف منه الكتاب الجزائريون مادة نصوصهم الروائية؛ فمنذ أن ألّف ابن هدوقة رواية "ريح الجنوب"* التي تُعتبر أول رواية جزائرية مكتوبة باللّغة العربية تستجيب لشروط الكتابة الروائية على صعيدي البنية والدلالة، مارست موضوعة الثورة حضورا طاغيا في المشهد الروائي والنقدي على حد سواء، حيث أثارت هذه الرواية ومثيلاتها الكثير من الأسئلة النقدية التي غلب عليها الطابع الأيديولوجي الدعائي المتوجه نحو شرح المضامين الاجتماعية وتفسيرها تفسيرا طبقيا يركن إلى رؤية للعالم تتسم باليقينية والشمولية باجتزاء المقاطع السردية الدالة على الصراع الطبقي بين طبقة برجوازية استعمارية خلّفت وراءها جماعة من الاقطاعيين الجزائريين الذين تمكنوا من التغلغل في بعض المصالح الحكومية وطبقة العمّال الصّاعدة التي تشرئب إلى وضع أسس نظام جديد يقوم على العدالة الاجتماعية.

وبهذا الشكل، غدت الرواية الجزائرية ، بتشخيصها للثورة التحريرية والدفاع عن مكتسباتها ومباركة مشاريع السلطة الفتية وتثمين قراراتها السياسية، رواية أطروحة لا يستكنف كاتبوها من إظهار انتمائهم للفكر الاشتراكي في ثنايا نصوصهم الابداعية بأسلوب يبرز تسلُّط هذا الفكر على التخييل الأدبي وعلى متخيّله معا، وتمتد سلطة الأطروحة لتطال متلقيّ هذا التخيي، حيث يبتغي الكاتب بتشخيص أطروحة ما تحويل تسلّطها عليه إلى القارئ، وكأنّه يروم الدخول في تواصل فكري ينقل فيه معرفته الأيديولوجية أو العلمية أو الدينية أو الفلسفية المشتعلة كسلطة إلى المتلقي بهدف تلقيه وإقناعه.

1- ينظر: حفيظة مخلوف، الرواية الجزائرية من الثورة إلى العنف، ص: 25-28.

* ريح الجنوب: أول رواية جزائرية فنية رائدة باللغة العربية بعد الاستقلال، جسدت أحوال المجتمع الجزائري، هموم الفلاح الجزائري، ومشاكله مع الأرض.

يتوسّل ابن هدوقة ، لتشخيص الثورة والدفاع عنها والتنبيه إلى خطر الإديولوجيات الأخرى التي ترمي إلى تقويض أركان الدولة الجديدة في رواية "نهاية الأمس"، لغة سهلة لا تتطلب إعمالا للذهن من أجل فهم معانيها العميقة وحبكة بسيطة لا تستغلق على القارئ إذا ما جرّب ترتيب مادتها الحدثية وأسلوباً في السرد يعتمد على التسلسل الذي نُلفيه في الحكاية مع توظيف اللواحق، في بعض الأحيان، لإلقاء الضوء على ماضي الشخصية الرئيسة واستعمال ضمير الغائب الدّال على حضور ذات شاهدة على الأحداث وعليمة بأفكار الشخصيات ونواياها وأفعالها؛ هذه الذات الراوية التي تحرص على تقديم "البشير" كشخصية ملتحمة مع نفسها فكرا وسلوكا وتصبو إلى الالتحام مع المجتمع مرّة أخرى بعدما أعيتها الحياة في المدينة بزيفها ورياء أهلها، فالبشير يريد العودة إلى القرية ليجسد حلمه الاشتراكي الذي حارب من اجله المحتل الفرنسي وكابد في سبيله آلام الفراق ونوازل الأسى والحيرة.

تمثل رواية "نهاية الأمس" توق ابن هدوقة إلى انبثاق النّظام الاشتراكيّ، الذي اقتنع به ودافع عنه في منابر الحزب وفضاء الإبداع منتقداً بعض أخطائه هنا وهناك، في المجتمع الجزائري كبديل عن النظام الاقطاعي الذي يُعد سبب التدهور الاجتماعي والاقتصادي و الثقافي، وهو توق يعكس وعياً ممكناً لم يستتب بعد، لأنّ الإقطاع مازال يملك إمكانات تسمح ببقائه ولو إلى حين، ولأنّ تحالف "الشيخ" معه يقف عائقا أمام اكتمال اللّحمة الاجتماعية.

كما تتحدّث رواية "طيور في الظهيرة" لمرزاق بقطاش عن آنية الفعل الثوري التحرري من خلال وعي الطفل "مراد" الذّ] يُطوّعه الكاتب تطويعا أيديولوجيا لا يخرج عن دائرة ما وقر في عقله وقلبه من التزام بالدين وحب للوطن، حيث يتضافر الإسلام والوطنية، وهما عاملان متأصلان في الإنسان الجزائري، في تأليف نظرة بقطاش للثورة التي يعكف على تشخيصها في باكورة أعماله الأدبية[1].

إضافة إلى نماذج عديدة شعرية ونثرية عالجت موضوع الثورة باللّغة العربية وباللّغة الفرنسية، وتجاوزوا ذلك إلى المواضيع الفرعية المتمخضة عنها مثل: الخصاصة، البطالة، التخلف، العنف، الارهاب، الفساد، الاستغلال، المحاباة، أزمة السكن، الثورة الزراعية..، وسواها من الموضوعات التي أرّقت مضاجع الكتاب الجزائريين.

1- سيدي محمد بن مالك، جدل التخييل والمخيال في الرواية الجزائرية، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2016، ص: 17-21.